الدولــة.....
عند ابن خلدون

obeikandl.com

قبل أن ألج محراب الدولة عند ابن خلدون أرى أنه من المفيد أن أقف عند أهم ما قاله ابن خلدون وما قيل عنه لعلّنا نزيد الموضوع غنىً.

العرب أبعد نجعة وأشد بداوة لأنهم متخصصون بالقيام على الإبل فقط /126ـم /وهم أبعد الناس عن سياسة الملك. ولا يحصل لهم الملك إلا بعصبية دينية /153ـ م/ من مبدأ " لا يفلح عربي إلا بنبي "لا يستولون إلا على البسائط /151ـ م/ وإذا تغلبوا على أوطان اسرع إليها الخراب لأنهم أمة وحشية فالحجر مثلاً، إنما حاجتهم إليه لنصبه في (أثافي) القدر فينقلونها من المباني ويخربونها عليه. والخشب أيضاً إنما حاجتهم إليه ليعمّدوا به خيامهم /151ـ م/ (أي ليصنعوا منها أعمدة خيامهم). إنهم أكثر بداوة من سائر الأمم. وإذا ملكوا أمة من الأمم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخذ ما في أيديها /153ـ م/. طبيعتهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران/151ـ م/. طبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس،وإن رزقهم في ظلال رماحهم وليس عندهم في

أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه، بل كلما امتدت عيونهم إلى مال أو متاع انتهبوه همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهباً أو غرامة /152ـ م/ هذا هو حالهم على العموم. /151ـ م/ حتى أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم وليس في العرب حملة علم لا في العلوم الشرعية ولا العقلية إلاّ في القليل النادر. وإن كان منهم العربي نسبة فهو أعجمي في لغته ومرباه /161ـ م/. كما ان صنّاع النحو وحملة الحديث وعلماء اصول الفقه وحملة علم الكلام كانوا من فارس. ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم وظهر بذلك مصداق قوله (ص): (لو تعلق العلم بأكناف السماء، لنا له قوم من فارس(لخ)). (من المقدمة)

مقدمةٌ ليست بالموفقة كما أعتقد.أو على الأقل ليست بالسارّة. ولقد انتابتني الصدمة حين قراءتي لها للوهلة الأولى كما انتابكم حين سماعها وقلت: لابد ان تكون هذه الآراء صادرة عن مُتمَشْرِقٍ حاقد على العروبة والاسلام. إلاّ أني بعد ان عدت وقرأتها قراءة متأنية خفَّفت من غلوائي. لا لأن هذه الآراء قد جاءت على لسان علاّمة عربي مسلم من فقهاء المذهب المالكي هو (ابن خلدون) موضوع حديثنا لهذا اليوم في كتابه ذي العنوان الطويل المسجوع كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.

أقول: لا لأن هذه الآراء قد جاءت على لسانه، بل لأمر أجد أنه من المفيد أن أقف عنده، لأنه قد يُفْهَم من سياق الكلام بغير معناه المُراد. وسأقف عند كلمتين فقط(كلمة عرب) و(كلمة عصابة) اللتين استعملهما ابن خلدون في (كتابه العبر).

ا- كلمة عرب: يرى ساطع الحصري في كتابه " دراسات في مقدمة ابن خلدون " ان ابن خلدون قد استعمل هذه الكلمة بمعنى الأعراب لا العرب (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً). (وقالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) "قرآن كريم". ولقد خضعت كلمة ـ عرب لتطورات كثيرة عبر التاريخ حيث

---

(1) الأرقام... تعني الصفحات في المقدمة التي رمزت لها بحرف/م/ وهي من كتاب ابن خلدون "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر . أما ذلك الحديث، فهو حديث موضوع.

كانت الكلمة تخص البدو وحدهم، ثم صارت تطلق على كل من يسكن المدن والأمصار./1/ ويرى د. محمد عابد الجابري في كتابه (مسألة الهوية ـ العروبة والاسلام والغرب) أن الأعرابي هو من سكن البادية والعربي هو من سكن المدن. ويضيف قائلاً: "وظهرت كلمة عرب وعروبة بشدة في منتصف القرن الماضي 19/م ـ عصر القوميات) أول ما ظهرت في لبنان وسورية وفلسطين. (والعرب والعروبة) كلمتان تستمدان معناهما من رد الفعل ضد الآخر الذي كان يهدد الوجود العربي ككيان متميز داخل الامبراطورية العثمانية، وكان هذا الآخر هم الأتراك الذين كانوا يطمحون في دمج القوميات الأخرى في القومية التركية الطورانية، مما عرف باسم (سياسة التتريك) وبخاصة بعد نشوء جمعية "تركيا الفتاة" التي انبثق من صفوفها وعي قومي يقوم على فصل العنصر التركي وتفضيله على العناصر الأخرى داخل الامبراطورية العثمانية./2/ ثم حاول بعد ذلك الاستعمار الغربي طمس معالم القومية العربية الذي إزداد تفتحا بعد الاستقلال واشتدأُواره بين الخمسينات وأوائل السبعينات حيث طرح حزب البعث العربي الإشتراكي" شعار"أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة"، وبروز القائد القومي العربي الراحل جمال عبد الناصر، ثم سطوع نجم القائد حافظ الأسد. إن الآراء التي طرحها ابن خلدون بشأن العرب... لم تحمل بعض المستشرقين فقط على الاستشهاد بها للطعن بالعرب..... بل دفعت حتى بعض القوميين العرب أيضاً إلى التهجم عليه. فبعضهم طالب بإحراق كتبه /3/ زاعماً أنه من الكافرين بالعربية، وبعضهم كالدكتور(طه حسين)، الذي شك وشكك بقضية الشعر الجاهلي برُمّته وشك حتى بالشخصيتين التاريخيتين (ابراهيم واسماعيل)، قد شك أيضاً بنسب ابن خلدون العربي في كتابه (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) ثم نفى (عبد الله بن عنان) عن ابن خلدون نسب العروبة وأرجع أصل نسبه إلى البربر/4/. لكن بعضهم كان على النقيض من ذلك. فقال: "إن الذين شكوا بنسب ابن خلدون العربي لو عادوا إلى كتابه آنف الذكر وتمحّصوا مضمونه برويّة لأدركوا أنهم قد تسرعوا في إطلاق أحكامهم عليه لأن ابن خلدون قد عامل البربر معاملة العرب بلا زيادة ولا نقصان. ويورد مثالاً تحت عنوان (إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع) فيقول: "و هؤلاء مثل العرب وزناتة ومن في

معناهم من الأكراد والتركمان وأهل اللثام من صهناجة/147 ـ م/ وزناته وصهناجة ـ كما نعلم ـ هما أقوى قبائل البربرعلى الاطلاق. فقد وضعهم والعرب في مقام واحد. حتى أن بعضهم قد عدّه الفيلسوف القومي العربي الأول/5/ معتبراً أن ابن خلدون قد لمّح وصرّح بعروبته من خلال قوله (وهي في لغتنا وليست في لغتهم) أي في اللغة العربية التي ينطق بها وينتمي إليها ويعتزّ بها./6/ وختاماً لهذه الفقرة نقول من مبدأ(لا إفراط ولا تفريط) لسنا مع الذين أخرجوه من نسب العروبة ولا مع من عدّه القومي العربي الأول. بل نحن مع الذين يقولون: إنه عربي النسب ويطيب لي أن أردد جملة قالها ابن خلدون حفظتها فور قراءتي لها إذ يقول"النسب علم لاينفع وجهالة لاتضر". أما فيما يتعلق (بالمقدمة) فإنها قد جارت كثيراً على (العرب والعروبة) أياً كان الهدف والمعنى لكلمتي (عرب وعروبة). ولقد حاولت جاهداً أن أجد نعتاً إيجابياً ـ ولو كان خيط عنكبوت ـ صدر عنها بشأن العرب فلم أجد. وإن أي قارئ للمقدمة سيرى فيها ما رأيت ويخلص إلى ما خلصت أثناء قراءته الأولى لها ولا بد أن ينتابه العجب من أقوال ابن خلدون وسيتخذ منه موقفاً معادياً، ولكن بعد أن يتمحّص ويعرف السبب حتماً سيبطل العجب. ولهذا... أرى أنه من المفيد جداً بل من الضروري في هذا المجال أن أُذكّر بما حصل من تزوير لكثير من المخطوطات العربية بعد خروج العرب من اسبانيا... تزوير قامت به أوربا ضمن خطة مدروسة مؤدلجة لخدمة أغراضها الاستعمارية وذلك من خلال إخضاع المخطوطات العربية لعملية نسخٍ إجبارية تزويرية على يد خطاطين (عرب وغير عرب)، غير عرب لتحقيق مآربهم، وعرب أُرْغِموا على القيام بهذا العمل الرهيب مُهَدَّدين بين أن ينسخوا ما يُراد وما يُملى عليهم وبين أن يُهدر دمهم. فها هو ((وليد الحجار)) أحد مثقفينا العرب السوريين يفضح العملية التزويرية في روايته التاريخية ((رحلة النيلوفر أو آخر الأمويين))، وسأورد ما قال باقتضاب مُرَكِّز لعدم الإطالة وبتصرف لا يتعدى تلاصق الجمل. يقول: ((واعْلم يا أخي...أني عبد مأمور لاحول له ولا قوة وأني ما عدت من طليطلة من فاس إلاّ بأمر من الملك (فيليب) نحمل إليه كتباً من خزانة السلطان... وأني لن أترك حراً طليقاً لأذيع خبر النسّاخ المائة والخمسين الذين /أنا/ منهم. نعمل ليلاً ونهاراً في إعادة كتابة

ما لدينا من مخطوطات عربية. وإن مخطوط/كتاب العبر/ الذي حملناه معنا لم يكن يحمل في الأصل كلمة/ بربر/ في عنوانه.

واعلم يا أخي أن هذه شهادتي قبل أن أموت...إني أقسم بالله العظيم وبالقرآن الكريم أني رأيت النساخ ((الموريسكاس))[لخ] يعيدون نسخ كتاب /العبر/ وغيره فيبدلون كل ذكر لكلمة /اعرابي/بكلمة /عربي/ في كتاب ابن خلدون ويضيفون إليه فصولاً بكاملها في مدح البربر/حسب مشيئة السلطان بذم العرب/و/حسب ما بنفوس أصحاب الدير/ ويحذفون فصولاً بكاملها في ذكر مآثر العرب مما كتبه ابن خلدون وأنا الذي أكتم إسلامي وعروبتي وقد ساعدت في هذا العمل الكريه اسوةً بمن حولي من مسلمين غُلبوا على أمرهم نعمل سويةً مع مولدين ويهود جميعاً في خدمة /الأسكوريال/[بر] والملك/فيليب/المأفون. إلى أن يقول: (وهكذا تحول كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر /بمسحة قلم/ وأصبح ما نعرفه اليوم بمقدمة ابن خلدون التي تحتوي صفحات في هجاء العرب) صفحات بنى عليها

---

(1) المريسكاس أو (موريسكوز) (المغاربة الاسبان) الذين تنصروا عقب اعادة فتح المسيحيين اسبانيا وكان المسلمون في اسبانيا حتى 1492 يسمح لهم بالاحتفاظ بعقيدتهم ولكنهم واجهوا بعد ذلك الخيار بين اعتناق المسيحية أو الطرد. استمر عدد كبير من المسامين العرب يمارسون سراً الفرائض الاسلامية وأدت سياسة عدم التسامح الديني الى نقص عدد المسلمين. وفي عام/1609/ طُرِدَ جميع المسلمين العرب من اسبانيا. فكان لهذا الإجراء النتائج السيئة على اقتصاديات اسبانيا. انظر الموسوعة العربية الميسره ص: 1777.

(2) الاسكوريال (دير) أو (قصر) على بعد /20/ ميلاً من (مدريد) في (اسبانيا) بناه الملك (فيليب الثاني) حاكم اسبانيا/1536 - 1584/ والذي تحطم على زمنه أسطول (الأرمادا) الاسباني. كما بنى معه ديراً وكنيسة ومقابر ملكية. قام بزخرفته فنانون مشهورون وفيه مجموعة رائعة من اللوحات الفنية الاسبانية ومكتبة ضخمة تضم كثيراً من المخطوطات العربية. وكان أسطول (الأرمادا) اسطولاً لا يقهر ايام فيليب الثاني يوم كانت اسبانيا اقوى دولة على وجه الارض إلا أن (انكلترا) استطاعت أن تقضي على ذلك الاسطول من خلال تكتيك قتالي جديد حيث قاتل الانكليز على ظهر السفن في حين أن أسطول (الأرمادا) كان يقاتل بأسلوب مضى زمانه. انظر (الموسوعةالعربية الميسره) ص/153/ وكتاب (دون كيشوت). دار البعث.عدد/20/ وزارة الثقافة ص/6 -7 -9 -20/.

المستشرقون حقدهم ويقدمون هذه الصفحات لنا على أنها صفات للعرب على لسان علامة عربي مسلم من مبدأ.. رب البيت أدرى بما فيه. لقد بُدِّل عنوان (كتاب العبر) وأصبح (كتاب العبر في أيام العرب والعجم والبربر).. إن ابن خلدون الفخور بأصله العربي لم يكتب ديوان العبر لتمجيد العجم والبربر والطعن بأصله العربي الحضرمي أبداً وعلى قارئ المقدمة أن يقرأ- فيما يتعلق بكلمة عرب - على هذا الأساس(لخ).

كلمة عصابة: يقول القاموس: تعصب له وتعصب معه = نصره. والعصابة كالعصبة هي جماعة من الناس " وأتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة" وقول أخوة يوسف لأبيهم في القرآن الكريم أيضاً "لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون". والعصبية هي المحاماة والمدافعة عمّن يلزمك أمره أو تلزمه لغرض. كانت تطلق هذه الكلمة قديماً على جماعة ذوي أخلاق حسنة. وقد وردت في مدح أشراف الغساسنة في قول حسان بن ثابت:

لله درّ عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول

أو على الهائمين بحب الله كقول محي الدين بن عربي... على البحر الكامل نفسه:

لله در عصابة سارت بهم نجب الفناء لحضرة الرحمن

ثم خضعت هذه الكلمة مع مرور الزمن ـ للتطوّر الدّلالي فصارت كلمة العصابة تطلق تحديداً على مجموعة من اللصوص والقتله وقطاع الطرق وشذاذ الآفاق. وهناك الآن بعض كلمات تغد الخطا نحو معناها الجديد مثل (الطغمة ـ العميل ـ المخبر)(بر) وقد استعمل ابن خلدون كلمة العصابة في كتابه ديوان العبر

---

(1) انظر كتاب تاريخ سوريا الحضاري القديم أحمد داوود مطبعة الكاتب العربي دمشق.ط/2 حزيران 1997 ص/15 -16 -17/.

(2) الطغمة ـ البحر ـ الماء الكثير. صارت الكلمة تطلق على كل ما هو سلبي"طغمة الأشرار الطغمة الفاشية" إلا أن الآباء المسيحيين ما زالوا يقولون"طغمة الاكليروس الموقر". وكذلك كلمة (العميل ـ الشريك) صارت تطلق على كل خائن لوطنه "عميل للاستعمار" والمخبر أيضاً هو الناقل للخبر أياً كان هذا الخبر لكنها صارت تطلق على كل عين تنقل للسلطة الأخبار. وما

بمعناها الأول لا بمعناها الثاني. ولكي يكون للكلمة اسقاط سياسي عصري يمَّس واقعاً معيشاً فسنذكر جملة أوردها **الباحث (تيسير شيخ الأرض) إذ يقول:**

إن علاقة أفراد الحزب السياسي بحزبهم في الدولة الحديثة شبيهة بعلاقة العصابة أو أبناء العصبّية بصاحب العصبّية في الدولة القديمة. وما من فرق بينهما إلاتبلور بعض الأفكار السياسية.كالحرية والعدالة]. والديمقراطية مثلاً.

عرض مكثف لأهم المحطات في سيرة ومسيرة ابن خلدون

ـ ولد في تونس عام/1332م/ وتوفي عام /1406 م/فجأة من غير مرض وهو على رأس عمله كقاض للقضاة في مصر وعمره/ستة وسبعون عاماً/ دفن في القاهرة ولا يعرف أحد أين قبره.

ـ عاش عصر المماليك في مصر وكانت بغداد قد سقطت بأيدي التتار/656/هـ وكان سقوطها كارثة مُنيت بها اللغة والأدب والحضارة العربية. ثم أخذت الدولة العربية تنهار في الأندلس وتسقط المدن الواحدة تلو الأخرى في أيدي القوط فلم يجد علماء بغداد وأدباؤها ملجأ سوى مصر بعدما خرب التتاَر معالمها وأغرقوا في نهر دجلة كتبها فعجّت مصر بهؤلاء الأدباء وكرّمت وِفَادتهم.

ـ تفشّى مرض الطاعون فأطاح بوالديه وبعدد من العلماء وهو في الثامنة من عمره فهاجرإلى المغرب الأقصى ونتيجة لذلك ترك العلم وتوجه إلى الوظائف العامة.

ـ أضافوا إليه الكثيرمن النعوت والألقاب حسب أعماله الوظيفية التي أوكلت إليه.

ـ رافق الحملة المصرية لمحاربة" تيمورلنك" في الشام فالتقى بتيمورلنك وكان مفاوضاً بارعاً.

زالت أمثال هذه الكلمات تعاني مداً وجزراً بين المعنيين إلى أن يأتي يوم وتهجر فيه الكلمة المعنى الأول تماماً مثل كلمة الطابور الخامس إذا كان المعنى... هو الطابور المؤيّد للثورة ثم أصبح المصطلح يعني مرّوجي الإشاعات المعادية وما إلى ذلك.

ـ فقد جميع اسرته وأهله وأولاده وكتبه وماله في حادث غرق سفينة كانت تقلّ اسرته للحاق به.

ـ لم ينعم خلال عمره المديد بحياة هادئة. فلقد نعت /روزفلت/ حياة ابن خلدون بـ/الحياة الصاخبة/ أو النوع الذي عبر عنه (موسوليني) بـ/الحياة المستخطرة/./7/

ـ هو/عبد الرحمن بن محمد بن خالد/ أبو زيد. لقب نفسه بالحضرمي. واشتهر بابن خلدون نسبة إلى أول من دخل من أجداده الأندلس وهو/ خالد بن عثمان/. وبما أن أهل الأندلس كانوا يضيفون إلى الإسم "واواً ونوناً" في آخره تعظيماً لقدر صاحبه فقد صار اسم جده (خالد ـ خلدون) كأن نقول/عمر ـ عمرون/سعد ـ سعدون/زيد ـ زيدون/[1] الخ.

ـ لاتساع شهرة مقدمته كادت تربط كلمة المقدمة باسمه كما ارتبط اسمه بكلمة المقدمة على الرغم من أن الأوربيين هم الذين أطلقوا كلمة المقدمة لا هو إذ أطلقوها على ما سماه هو بـ"الكتاب الأول من ديوان"كتاب العبر"/8/.

حياة ابن خلدون

تنقسم حياته إلى ثلاثة أدوار رئيسية:

أـ دور العمل السياسي في بلاد المغرب. استمر مدة تزيد عن السنتين/1352ـ 1374/.

ب ـ دور الانزواء والتأليف والتأمل في قلعة (ابن سلامة).

استمر أربع سنوات/1374ـ 1378/ بعد أن أدرك أن العلماء هم نوع من البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها رغم أن أرسطو قال (الانسان حيوان سياسي).

ج ـ دور الانصراف إلى التدريس والقضاء ومراجعة التأليف استمر ثمانية وعشرين عاماً/1378ـ 1406/.

صفاته

---

(1) تضاف الواو والنون في العربية القديمة أيضاً للتصغير.

محب للعلم.. راغب في الظهور... واسع الاطلاع... غزير المعرفة... حفظ القرآن في سن مبكر... درس العلوم الشرعية واللغة العربية والعلوم التطبيقية والرياضية وعلم المنطق والفلسفة. ونستشف سعة مخزونه المعرفي من كتابه"ديوان العبر" حيث كذب فيه تخرصات بني اسرائيل من حيث تعدادهم (22ـ23/م) ورفض أسطورة المؤرخين التي تجعل الزنوج وأكثر أبناء إفريقية سوداً لغضب جدهم /نوح/ على ولده/حام/ من خلال الشتيمة التوراتية التي لفّقها اليهود. كما ردّ التهمة الموجهة زوراً إلى الخليفة الفاضل/هارون الرشيد/ من شربٍ للخمرة ومعاشرة للنساء، ودافع عن عفة أخته /العباسة/ فيما يروى عن علاقتها بهتاناً بـ/جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي/ وما جرَّته هذه العلاقة من شربها للخمرة معه ومواقعته لها وحملها منه سراً (26ـ30 /م) وأنبأنا بأن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمراناً من الربع الجنوبي (90/م) (برد الشمال وحرالجنوب). وهناك الآن نظرية حديثة تقول (الشمال الغني والجنوب الفقير) كما أخبرنا بتأثير الهواء على أخلاق وعقول البشر(2/94). ويدلّك حديثه على ثقافته الموسوعية سواء في موضوع الاسرائيليات أو في علم البيئة وعلم التاريخ والجغرافيا ناهيك عن حديثه في الطب والخط والكتابة وعلوم الحديث وعلوم البلاغة، وتقديمه معلومة "سيكولوجية" تتعلق بالأطفال طالبنا فيها بالرأفة بهم لأن التعسف والقهر يحملهم على الكذب ولاغرو في هذا.ألم يكن سائر السلف المثقفون يتحدثون ثقافياً في الاتجاهات الستة فقد عّرفوا المثقف (بأنه هو الذي يعرف كل شيء عن شيء وشيئاً عن كل شيء). ولعل أهم ما قدمه لنا هو (ارهاصه لعلم الاجتماع) الذي قال عنه بلسان حاله "واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة(49/م). ويضيف كما تقول الموسوعة الميسرة/9/ بعد أن فرق بين علمه الجديد/أي علم الاجماع/ وعلم الخطابة الذي عده علماً نافعاً /لاستمالة الجمهور إلى رأي أو صدهم عنه/: (لعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة. ما أدري. ألغفلتهم عن ذلك؟ وليس الظن بهم أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلينا) (49/م). ويضيف قائلاً: (كأن بعضهم قد حوّم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده ولا استوفى مسائله. ونحن ألهمنا اللّه إلى ذلك إلهاماً) (51/م). ويأمل من الذين يأتون من بعده أن يستمروا في البحث

فيتمموا ما فاته من مسائل. وقد تحقق أمله ولكن للأسف على يد فلاسفة غربيين أمثال (فيكو)... و(أوغوست كونت)... و(هربرت سبنسر)... وآخرين. ومن يتأمل صورته التي رسمها تخيّلاً الأديب الفنان المبدع العبقري "جبران خليل جبران" يستطع أن يقرأ ملامح شخصية عزّ نظيرها... ينبيك مظهرها عن عمق جوهرها.

الدولة عند ابن خلدون

إذا كان علم السياسة هو إدارة الشؤون المشتركة بمقتضى الحكمة فإن الدولة في التعريف الحديث هي (مجموعة من الأفراد يقيمون بصفة دائمة في إقليم معين وتسيطرعليهم هيئة حاكمة ذات سيادة) إلا أن ابن خلدون لم يُعَرِّفْ الدولة من خلال حديثه عنها... بل تكلم عنها وكأنها من الأمور المفهومة التي لا تحتاج إلى تعريف. وكثيراً ما كان يرادفها /عنده/ كلمة "الملك". والدولة في نظره هي[الملك التام الذي لا فوق فوقه وينضوي تحت لوائه عدة أقوام وملوك].10/

نشأة الدولة عنده

إذا رأى (نيتشه) ان الدولة لا تبدأ بعقد ولا بتعاون وإنما ينشؤها جبابرة من الوحوش الكواسر السادة الأقوياء ذوي المقدرة الحربية والتنظيم العسكري الذين أنشبوا مخالبهم في سكان بلاد تفوقهم عدداً. ورأى هيغل أن الدولة إلّه على الأرض، فإن رأي ابن خلدون في موضوع نشأة الدولة يماثل آراء افلاطون وأرسطو والفارابي. إذ رأى افلاطون أن الدولة تنشأ عن عجز الفرد عن سد حاجاته بنفسه وافتقاره إلى معونة الآخرين. ورأى تلميذه أرسطو أن الدولة هي مجموعة من المواطنين ذات عدد كاف لتحقيق جميع أغراض الحياة. ورأى الفارابي مثلهما وأن الدولة هي نتاج أفراد أهاليها وتستمدّ شكلها منهم، وكذلك ابن خلدون إذ رأى أن الانسان مدني بالطبع والاجتماع ضروري له، وهو أقرب إلى خلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة، لأن الشر جاء إليه من قبل القوى الحيوانية التي فيه(145/م) وأن الانسان أخو الإنسان، بعكس (هوبز) الذي رأى أن الانسان ذئب على أخيه الإنسان. والانسان يتعاون مع أبناء جنسه من خلال الاجتماعات البشرية الضرورية له **لتأمين حاجتين أساسيتين:**

1. **سد حاجته لتحصيل غذائه.**
2. **الدفاع عن النفس أمام الحيوانات العُجْم.**

1ـ فيما يتعلق بسد حاجته وتحصيل غذائه: فإن لكل منهم دوراً فالخبز مثلاً لا يصل إلينا إلا بعد عملية مركبة تحتاج إلى زارعين وساقين وحاصدين ودارسين وبائعين وشارين وطاحنين وعاجنين وخابزين ومن ثمّ.. يصل إلى الآكلين.

2ـ فيما يتعلق بالدفاع عن النفس: فإن العدوان متأصل في الحيوانات العُجْم وقد زُوِّد كل منها بعضو يدافع فيه عن نفسه (قرون..مخالب) إلا أن الانسان قد وُهِب بدل القرون والمخالب (الفكر واليد) فصنع الرمح بدل القرن والسيف عوضاً عن المخلب.إلى غير ذلك مما ذكره (جالينوس) في كتابه ((منافع الأعضاء)).

نشوء السلطة السياسية

بعد تحصيل الغذاء وحماية الانسان نفسه من الحيوانات صار بحاجة ماسّة إلى سلطة تكون وازعاً يدفع بعضهم عن بعض لما في طبيعتهم الحيوانية من ظلم وعدوان وبخاصة وأنهم ملكوا السلاح.

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلّةٍ لا يظلم

سلطة تكون فيها ولها الغلبة والسلطان واليد القاهرة عليهم حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان. ذلك هو الملك(54/م)، فالعالم بستان سياجه الدولة. وإذا كان للحيوانات رئيس منهم يتميز عنهم (كالنحل والجراد) بمقتضى الفكرة والهداية لابمقتضى الفكرة والسياسة التي يتمتع بها الانسان الذي يدرك الظواهر بالحواس الخمس والبواطن بالقوة الدماغية (111/م)، إذا كان للحيوانات رئيس منهم فالأولى أن تكون الرئاسة والسلطة للمتميّزين من البشر "أعطى كل شيء خلقه ثم هدى".

السلطة بين الوضع والتنزيل

خالف ابن خلدون أكثر آراء المفكرين والفلاسفة المسلمين وعلماء الكلام من أن النبوة ليست ضرورية لإنشاء مجتمع وتأسيس حكومة وإن عدّها مفيدة. والسلطة في نظره ليست مُنَزَّلةً ولا مفروضة من السماء كما يزعم البعض بل هي وضعية

يفرضها القائمون عليها، وهي ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية، وتتكون بشكل طبيعي بمجرد اجتماع البشر وقيام العمران لايجاد التكافؤ بين عناصر المجتمع المختلفة. كما أن الدين ليس شرطاً ضرورياً للدولة لأن أغلب أمم الأرض لم تعرف النبوات. "ويذكر المجوس مثالاً" إلا أنه أقرّ بأن الدولة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها، لأن الصبغة الدينية تُذهب التنافس والتحاسد الذي هو أصل العصبية (159/م) (لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى) (المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص) (كل من تكلم العربية فهو عربي).. وأكد أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم " ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه". وكان يقول "إذا فقد شعب عصبيته فقد سيادته". رغم أن الحديث النبوي الشريف يقول: (من قاتل تحت راية عميّة يدعو إلى عصبية أو يغضب لعصبية فقتلته جاهلية)/11/. أو قول (ليس منا من يدعوا إلى عصبية). ولقد فرق الرسول (ص) بين حب القوم وبين العصبية من مبدأ (الأقربون أولى بالمعروف). إذ عندما سأله أحدهم قائلاً: يا رسول الله أمن العصبيّة أن يحب الرجل قومه؟ قال: (لا ولكن من العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم). وكأني بابن خلدون ـ على الرغم من معرفته بمعنى الحديث الشريف (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً). أي نصرة أخيه المظلوم ومنعه من الظلم ولو كان أخاً ـ وكأنه يردد البيت الشعري القائل:

وما أنا إلا من غزيّة إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

من هو الأولى بالرئاسة؟

الرئاسة في أهل العصبية تكون بالغلب. ومن الواجب أن تكون هناك عصبية أقوى من سائر العصائب ليقع الغلب بها وتتم الرئاسة لأهلها (135/م). وغاية العصبية هي الملك (143/م). ولا يمكن أن تكون الرئاسة على أهل العصبية من غير جلدتهم ونسلهم (38ـ136/م) انطلاقاً من قوله(ص): (مولى القوم منهم).

الرئاسة والملك: يفرق ابن خلدون بين الرئاسة والملك فيقول:

الرئاسة: سؤدد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه، إلا أن الرئاسة تنتهي بالملك لأن صاحب العصبية إذا بلغ رتبة طلب ما فوقها.

أما الملك: فهو فوق الرئاسة. وهو الغلب والحكم والقهر وإلزام الآخرين في كل شيء. ويزيد الملك على الرئاسة بشيء... هو الحكم بالقهر.

العصبية والدولة

إذا حصل تغلب العصبية على قومها، طلبت التغلب بعدها على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها. وكأن ابن خلدون يُعرِّف الغزو بلغة الحاضر"فالغزو.. تعريفاً.. هو فعل قوة ضاق بها محيطها ونمت أطماعها فتجاوزت ذلك المحيط.. لسد ثغرات أو لتحقيق طموحات". فإذا كانت العصبية الثانية قوية كقوة الأولى أو أقل بقليل.. اكتفت كل عصبية بما لديها. أما إذا غلبتها الأولى استتبعتها وألحقتها بها. فتزداد الأولى بذلك قوة على قوة. لكن إذا حصل الاعتداء والأولى في هرمها، انتزعت الثانية الأمر من يد الأولى وصار الملك للثانية(142/م). والأمة إذا غُلبت وصارت ملك غيرها أسرع اليها الفناء(150/م). والذي يساعد على قيام الدولة واستمرارها.. اتّصاف الحاكم بصفات الكرم والخير، لأن الأعطيات والهبات تزيد الدولة في بدايتها قوة على قوة. إن الرئاسة بحاجة إلى عصبية أما الذين لاأنساب لهم ولا عصبية... فلا يمكن أن يصبحوا من ذوي الرئاسة أبداً.

تأثير الغالب على المغلوب

النفوس يصعب انقيادها للدولة أول قيامها إلاّ بقوة قوية من الغلبة والقهر (156/م) إلى أن تستقر أمور الدولة والرئاسة معها. واستقرار الأمر في أيدي فئة قوية من الناس يجعلهم متفوقين غالبين. فتعترف بهذه الفئة الغالبية العظمى من الفئات الأخرى. عندها لم يعد التغلب تغلباً من الخارج بل صار يحتل النفوس بعد أن غزاها من الداخل شيئاً فشيئاً حتى صار يزيّن للمغلوبين كل مالدى الغالب من عادات وتقاليد ومذاهب، فيتشبهون به ويقلدونه في ملبسه ومركبه وسلاحه. بل في سائر أحواله (149/م) فالناس على دين الملك (40/م). ونحن نقول في المثل العامي"الناس على دين ملوكهم" ويعلل ذلك ابن خلدون قائلاً: السبب في ذلك أن النفس تعتقد الكمال فيمن غلبها. ويذكر مثالاً يبين فيه كيف يقلد الأبناء آباءهم... الصغير يقلد أباه فيفتل شاربيه أمام المرأة وهو مازال حَدَثاً والصغيرة تقلدأمها في الرقص والزينة

وما إلى ذلك.

الدولة... اتساعاً وانحساراً... وأهمية مركزها

للدولة امتداد في الزمان والمكان. يقول ابن خلدون: (وتتسع الدولة حتى تبلغ غاية اتساعها ثم تقف عند هذا الحد إلى أن يأتي الدور الذي تبدأ به عدهاالتنازلي. وانحسار الدولة يبدأ أول ما يبدأ من الأطراف، إذ بعد أن تدرك القوة المجاورة ضعف قوة جارتها تبدأ الدولة المعتدية القوية بمناوشة الدولة الضعيفة المعتدى عليها من الأطراف، فتحاول الأطراف المغلوبة لم شتاتها وذلك بالعودة والاحتماء بمركز الدولة الوسط). ويقول أيضاً: (إذا أدرك الأمة الضعف تأخذ في التناقص من جهة الأطراف ولا يزال مركزها... أي العاصمة حديثاً...[لخ] محفوظاً. أما إذا غُلِبَتِ الدولة في مركزها فلن ينفعها بقاء الأطراف لأن المركز كالقلب الذي تنبعث منه الروح فإذا غُلِبَ القلب انهزمت سائر الأطراف.... شأن الأشعة والأنوار التي تتلاشى تدريجياً كلما ابتعدت عن مركز انطلاقها). ويذكر ابن خلدون في هذا الصدد مثال الدولة الفارسية يوم غلبها المسلمون في مركزها فلم ينفع "يزدجرد" ما بقي في يده من أطراف مملكته... فانهارت دولة فارس كلها بعكس ما حصل مع الدولة الرومانية حيث كان مركزها في القسطنطينية. ويوم غلب المسلمون الرومان في الشام تحيّزوا إلى مراكزهم في القسطنطينية ولم يضّرهم انتزاع الشام من أيديهم. لأن الأمم المغلوبة تواصل المقاومة حتى تسقط عاصمتها... وإذا سقطت العاصمة فعلى الأرض السلام... إن لكل دولة حصةً من الممالك لاتزيد عليها لأن عصابة الدولة والقائمين عليها.. والممهدين لها لابد من توزيعهم على الممالك والثغور التي احتلتها الدولة لحمايتها، فإذا توزعت العصائب كلهاعلى الثغور والممالك فلا بد من نفاد عددها، لأن الممالك إذا بلغت حداً كبيراً لا تستطيع الدولة حينها حمايتها لقلة ما لديها من جند... فتبقى هذه الممالك بلا حماية... عندئذ ينتهز العدو المجاور الفرصة لاحتلال هذه الممالك وبذلك يكون وبالاً على الدولة وخرقاً لسياج الدولة وهيبتها(163/م).

بداية ملامح الانحسار

---

(1) ولهذا يقولون: العاصمة هي اختصار للوطن.

من طبيعة الملك الترف لأن الأمة إذا تغلّبت وملكت كثرت في أيديها الآلاء والنعم. فيتجاوز القائمون عليها قسوة العيش ويميلون إلى الرقة والدّعة والزينة ويأكلون الطيب ويلبسون الأنيق ويركبون الفارِه(168/م) ويستمتعون بأحوال الدنيا وزخرفها. وعندما يبدأ الترف ـ والترف مفسدة للخلق ـ يبدأ الهرم في مفاصل الدولة شيئاً فشيئاً.. حتى تزيد نفقات القائمين على الدولة على عطاءاتهم ويبدأ تمايز المجتمع وتفاوته طبقياً... فيهلك الفقراء المعدمون في بؤرة الإنسحاق والعدم ويسبح الموسرون في نعيم مقيم، ويستغرق المسرفون في تبذيرهم مما يُجْبِرُ صاحب الدولة على زيادة الأعطيات ليسد الخلل الحاصل فيضطر إلى رفع نسبة الجباية. والدولة لا ترفع الجباية إلا في آخر أيامها. لكن هذا العمل لا يسد الخلل فيُشرع السلطان وحاشيته ورعاياه ومن لفّ لفّهم بامتهان التجارة. وامتهان التجارة من قبل السلطان ـ كما يرى ـ مضرّة بالرعية والاقتصاد وإفساد الجباية، وأعظم من ذلك تسلط الدولة أو التجار الذين أصبحوا تجاراً(لخ) باسم الدولة على أموال الناس وذلك بشراء ما في أيديهم بأبخس الأثمان. ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان. ولكونهم صاروا سماسرة وتجاراً في آن معاً فإنهم يُكْرِهون الشعب ظلماً وعدواناً في عمليتَيْ البيع والشراء والظلم مُؤْذِنٌ بخراب العمران.

حجر السلطان والاستبداد عليه

اذا استمرت السلطة فقط في أفراد العصابة القائمين على الملك واحداً تلو الآخر في هذه الحالة قد يحدث التغلب على المنصب من قبل وزراء أفراد العصابة وحاشيتهم، وسببه في الغالب ولاية صبي صغير قاصر من أهل الملك يرشح للولاية في عهد أبيه أو من قبل أخواله وذويه. صبي يؤنس فيه العجز عن القيام بالملك. فيقوم بالملك الفعلي وزراء أبيه وحاشيته ومواليه. فيحجب هذا الصبي عن الناس ويعوّدونه على ذوبان الذات والغرق في الملذات التي يدعو إليها ترف أحواله. وينسونه النظر في الأمور السلطانية (184ـ185/م) ويبقى الحل والربط والأمر والنهي بيد الوزير. وإذا

---

(1) نظر ابن خلدون الى التجارة على أنها تلطف الأخلاق الخشنة لاضطرار التاجر إلى إمكانية البيع والشراء فيعطي من طرف اللسان حلاوة (744/م).

ما أراد هذا الصبي يوماً بعد ان يبلغ أشده وتتسع مداركه ويتفهم ما يجري من حوله وهو لاحول له ولا قوة... اذا ما أراد الامساك بزمام السلطة فلن يستطيع ذلك أبداً لأن الوزراء والحاشية يحتلون مفاصل الدولة بكاملها ويشرشون في عروقها وشرايينها ظاهراً وباطناً... سراً وعلانية، فيعرضون عليه خيارات هي في الحقيقة خيارات في الظاهر أما في الباطن فما هي إلا قسر والزامات ولا سبيل له بالخيار ولا التفكير بغيرها تبديلاً أو تعديلاً... وهي إما رفع الرتبة عنه وإقصاؤه من المكان أو قتله بأسلوب ما... أو الرضى والتسليم بهذا الواقع الذي يراه ولا يرضى عنه ولا يستطيع أن يحرك نحوه ساكناً. ساعتئذٍ يجد نفسه مضطراً لقبول الشروط للحفاظ على حياته أو مكانه على الأقل.

أجيال الدولة

يقول ابن خلدون: (للدولة أعمار كما للناس أعمار) استناداً إلى الآية الكريمة (فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون) ومعدل عمر الأمة الطبيعي عنده ـ باستثناء الأحوال النادرة ـ مئة وعشرون عاماً أي أن عمر الدولة في الغالب لا يتعدى ثلاثة أجيال، والجيل في نظره هو عمر الشخص الذي بلغ أشده ـ أي عمر الوسط ـ (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة). كذلك بنو اسرائيل يوم دعاهم موسى إلى ملك الشام قالوا له: (إن فيها قوماً جبارين لن ندخلها حتى يخرجوا منها). ولما عزم عليهم لجّوا وعصوا وقالوا: "اذهب أنت وربك فقاتلا..." فعاقبهم الله بالتيه وقال جلّ وعلا: (إنها محرمة عليهم.. أربعين سنة يتيهون في الأرض) فلم يأووا خلال التيه لعمران ولا نزلوا مصراً ولا خالطوا بشراً (144/م). ولقد عاقب الله بني اسرائيل بالتيه حتى ينقرض الجيل الأول ويظهر من بعده جيل لم يعهد الذلّ الذي كان يعيشه سلفه. وكل جيل من هؤلاء الأجيال الثلاثة يختلف عن الآخر في أخلاقه وطرق معيشته وفي ظواهره وسماته. وهذا الاختلاف بين الأجيال الثلاثة يمثل طور الدولة من القوة إلى الضعف ومن قسوة البداوة إلى لين الحضارة. لأن ابن خلدون يرى أن البدو أقدم من الحضر وأكثر خشونة. ولأنهم أعرق في البداوة فهم أكثر توحشاً وأقوى على الغلب من سواهم. كما أن البدو في نظره أقرب إلى الخير والشجاعة والبساطة الأولى من أهل الحضر الذين

يمارسون فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا التي لوثت نفوسهم. ولهذا هاجمه بعضهم لأنه في نظرهم فضل الحياة الهمجية على حياة الحضارة.

أجيال الدولة الثلاثة

الجيل الأول: جيل البداوة والخشونة ويصفه ابن خلدون قائلاً: (وهذا الجيل لم تزل فيه خلق البداوة وخشونتها وتوحشهامن شظف العيش وبساطة الإفتراس والاشتراك في المجد فلا تزال سورة الغضّبية محفوظة لديهم.

فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون).

الجيل الثاني: وهذا الجيل الذي انتقل من البداوة إلى الحضارة ومن شظف العيش إلى رخائه ونعيمه يصفه ابن خلدون بمايلي: (والجيل الثاني تحوّل حالهم بالملك والترف من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف والاشتراك في المجد والانفراد به. ومن عز الاستطالة إلى ذلّ الاستكانة) ومن يعجز عن المدافعة عما يملك فهو عاجز أيضاً عن مقاومة مهاجميه أو مطالبتهم حتى بأدنى حق من حقوقه المسلوبة منه (143ـ144/م) فتتكسر شوكةالعصبية بعض الشيء وتؤنس منهم المهانة والخنوع ويبقى لهم ما أدركوه من الجيل الأول.

الجيل الثالث: هو جيل الحضارة والترف المبالغ فيه إلى حد التفريط. يقول ابن خلدون: (أما الجيل الثالث فإنه نسي عهد البداوة والخشونة كأن لم يكن فيفقد حلاوة العصبية ويبلغ فيه الترف غايته حتى يصبح عالة على الدولة ويغدو من جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنه). هذا الجيل يلبس الشارات البراقة ويطرح الشعارات الزائفة ويركب الخيل للأبهة والتمويه فقط وهوأجبن من النساء وإذا استجار به مستغيث لم يجد به هَيْعَة ـ ((الصوت المرعب والمخيف)) (129/م) ولم تعد تهزّه نخوة أو تثير حميّتهُ صرخة "وامعتصماه". باختصار شديد: إن عمر الدول عند ابن خلدون ثلاثة أجيال (بناء ف/جني/ف/هدم/) /الأول يبني ويؤسس/ والثاني يعيش على مابناه الأول/ والثالث يهدم/....[لخ]

---

(1) ويذكرنا ذلك بإخوان الصفا الذين يذهبون إلى أن [كل دولة لها وقت منه تبتدئ ولها غاية إليها ترتقي وحد إليه تنتهي. وإذا بلغت مدى غايتهاأخذت في الانحطاط والنقصان] انظر كتاب

أطوار الدولة

الأجيال الثلاثة التي تحدثنا عنها تمر بخمسة أطوار مختلفة تبدأ بالاتساع وتنتهي بالانحسار

1. **طور الظفر**: يتم حين الاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السابقة. وفي هذا الطور يكون صاحب الدولة نداً للجميع. الكل في ظله سواسية وشركاء معه في الملك والمجد والمال وذلك بمقتضى العصبيّة التي يقع بها الغلب.

2. **طور الاستبداد**: يبدأ صاحب الدولة بالاستبداد محاولاً بادئ ذي بدء الانفراد بالملك شيئاً فشيئاً فيمنع سائر القبيل من الاشتراك به. ومن طبيعة الملك الانفراد بالمجد وإحياء خلق التأله الذي في طباع البشر مع ماتقتضيه السياسة من انفراد الحاكم بالحكم (167/م). وعندما يمنعهم صاحب الدولة من المساهمة والمشاركة في الملك بعد أن كانوا يضربون في الملك بمثل سيفه ولهم مثل أسهمه يستطيبون الموت في سبيل استعادة ما سُلب منهم. فيضطر صاحب الدولة إلى اصطناع رجال آخرين من غير جلدته لاتخاذهم موالي وجنداً له، ويستكثر منهم لجدع أنوف أهل عصبيّته والعصبيات الأخرى ليقي الدولة من الهرم، والدولة لا تصطنع الأجانب إلا في آخر عمرها(184/م). كما حدث مع الأتراك الذين كانت غالبيةجندهم من الموالي. فيصل الأمر بصاحب الدولة إلى حد قتل كل من استراب فيه من قرابته ممن تسول له نفسه المشاركة في الحكم...(والقتل مفسدة للنوع).

ساعتها... تراوح الأمة في مكانها وتحيا في سبات شتوي وتتنفس بجزء من رئتها حتى يطالها المرض بكلّيتها ويتجاسر عليها أعداؤها وينهشوها من كل جانب.

3. **طور الفراغ والدعة**: ويتم في هذا الطور تحصيل ثمرات الملك وحصد النتائج فيشرع صاحب الدولة. بإنشاء المباني الضخمة. والقصور الفضفاضة والامصار المتسعة والهياكل المرتفعة والأبهة الزائفة **ويذكر هنا مثالين:**

عبده الشمالي دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الاسلامية وآثار رجالها. بيروت ط/5 ط1979 ص/ 399/. وانظر رسائل إخوان الصفا...

1ـ يذكر أعراس (المأمون)بـ (بوران) بنت الحسن بن سهل وما بذل أبوها وما أنفق في عرسها.

2ـ يذكر حفل الحجاج عندما أَوْلَمَ لاختتان ولده حيث فاق في انفاقه في هذا الحفل إنفاق مرازبة كسرى. كما يظهر أيضاً على حاشيته أثر الجاه والمال في ملابسهم وزينتهم وأشكالهم ليُباهِي بهم الدول المسالمة ويُرهب الدول المجاورة إلاّ أن هذه الحاشية ليست سوى هياكل عظمية وخشب مسندة لاتهش ولا تبش كأنهم أعجاز نخل خاوية. وهذا الطور هو آخر أطوار الاستبداد.

4. **طورالقنوع والمسالمة:** يقنع صاحب الدولة في هذا الطور بما بناه الأولون ممن سبقوه. فيقلدهم تقليداً أعمى متقفّياً آثارهم حذوالنعل بالنعل، ويرى أن الخروج عن تقليدهم أمر ضار له ولسلطته. فيفشل ـ لضعف ملكاته ـ حتى في تقليدهم ويكون بذلك قد أتلف ما جمعه سلفه من غير أن يقدم عبر حياته شيئاً... وكيف يقدم ويعطي وفاقد الشئ لا يعطيه؟ فهو غائب حتى في الحضور... وموجود بغير وجود... ومظهرٌ من غير جوهر.

5. **طور الإسراف والتبذير:** يتلف صاحب الدولة في هذا الطور ما بقي من المال الذي جمعه الأولون في سبيل الشهوات والملاذ عليه وعلى بطانته ومجالسه فقط ممن اختارهم واصطفاهم من أخدان السوء وخضراء الدمن[لخ] "أي الجميل منظره والقبيح مخبره" وعندما يشعر أن مال الدولة قد أوشك على النفاد يبدأ بالتقليل من الأعطيات لجنوده مع تخفيف عددهم ما أمكن. وهؤلاء الباقون ليسوا إلاّ جنوداً فسدت أخلاقهم وتعوّدوا على النعيم المقيم وهم قاعدون، فقد استعذبوا الأخذ من غير عطاء "كالقط الذي يأكل ولا يصطاد". وهؤلاء لا يمكن أن يتحملوا شظف العيش وحياة التقشف فيتخاذلون حتى في نصرته في اللحظات التي هو بأمسّ الحاجة فيها إليهم. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور مخرّباً لما كان سلفه يؤسسون، وهدّاماً لما كانوا يبنون. فتشيخ الدولة ويطالها الهرم وتضمحل شيئاً فشيئاً إلى أن تزول عن خارطة الوجود. وإذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملها على ارتكاب الموبقات

---

(1) يقول الرسول محمد(ص): (إياكم وخضراء الدمن) أي المرأة الجميلة ذات المنبت السوء.

وانتحال الرزائل(146/م). ثم يذكر الآية الكريمة: (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا).

ابن خلدون في ميزان النقاد

لما للزمان من بالغ الأهمية فقد اضافه (إينشتاين) بعداً رابعاً إلى الأبعاد الثلاثة(الطول والعرض والارتفاع). لذا لا يمكن النظر إلى دولة ابن خلدون بالعين التي ننظر بها إلى الدولة هذا اليوم لأن ابن خلدون قد رسم دولته في القرن الرابع عشر /م/. وبالتالي... فهي مرآة تعكس أحوال زمانه وما سبقه مضافاً إلى ذلك استشرافه الخلدوني. ولو نظرنا إلى دولة ابن خلدون بعين اليوم لكنّا كمن يقيس معلقة امرئ القيس بمسبار القصيدة النثرية أو كالذي ينظر بعين العصر إلى عّرافة دلفي في وقت كان فيه اليونانيون يعتقدون أنها تتخطى حجب الغيب وتستشرف لهم مكنون الآتي.

من النقاد من رأى أن ابن خلدون كان مقلداً لا مجدداً ولا رائداً في مجال علمه. يقول(أحمد محمد الحوفي) في كتابه (مع ابن خلدون) (إن ابن خلدون قد أخذ بعض آرائه من كتاب الفارابي... آراء أهل المدينة الفاضلة... أخذ منه حاجة الإنسان إلى الاجتماع ونشأة القرى والمدن، كما استعار من إخوان الصفا تقسيم العلوم وآراءهم في تأثير الطبيعة والبلدان على الأخلاق، كما اعتمد في تقسيم العلوم على مفاتح العلوم للخوارزمي، ونقل كثيراً من الآراء السياسية من كتاب (الأحكام السلطانية) للماوردي وكذلك عن كتاب (آراء أرسطو السياسية) إلخ...

ومن النقاد من قال: إنه تأثر بالطرطوشي. وهذا الرأي في نظري رأي مسطح لا أهمية له لأنه لم يُبْنَ على استنتاج ولا على اجتهاد وإنما كان نقلاً حرفياً عما قاله ابن خلدون بلسان حاله عندما تحدث عن الكتاب المنسوب لأرسطو في السياسة. وقد يوافقني الآخرون عندما يقرؤون ما قاله ابن خلدون. قال: (لقد وقع إلينا الكثير من مسائله ـ أي علم الاجتماع ـ في كلمات متفرقة لحكماء الخليقة لكنهم لم يستوفوه. فمن كلام الموبذان بهرام بن بهرام فقيه الفرس وحاكم المجوس(50/م) ومن كلام

(انوشروان) في هذا المعنى، وكذلك نجد في كلام ابن المقفع. ويتابع قائلاً: وهنا محط الشاهد: (وأبو بكر الطرشوشي في كتابه (سراج الملوك) حوّم حول هذا الموضوع لكنه لم يصادف فيه الرّمّية ولا أصاب الشاكلة ولا استوفى المسائل ولا أوضح الأدلة) (50ـ51/م). وإن قول ابن خلدون (حوّم الطرشوشي حول الموضوع) يعني في نظري أن أولويات موضوع علم الاجتماع كانت واضحة المعالم في ذهنه وكان بذلك مقوّماً للطرشوشي لا ناقلاً عنه أو متأثّراً به. وإذا عد الدكتور طه حسين أن ابن خلدون ما عرف علم الإجتماع ولكنه وضع أسس الفلسفة الاجتماعية/12/ فإن كثيراً من النقاد قد اجمعوا أن ابن خلدون كان أول من حاول أن يفسر التاريخ في حركته الجدلية، فلقد عدّه (أوغست كونت) مؤسساً لعلم الاجتماع/13/. ورأى المستشرق الهولندي (دي بور) في مقدمة ابن خلدون عملاً عظيماً مبتكراً/14/. وعدّ (ول ديورانت) في كتابه قصة الحضارة الجزء (26ـ27) ص (78ـ85) عدّ المقدمة واحدة من الروائع في الأدب الإسلامي وفي فلسفة التاريخ... وأن كتابه أهم مؤلف تاريخي في العصور الوسطى. ونظر إليه المستشرق الإيطالي (أماري) على أنه أول كاتب في العالم عالج موضوع فلسفة التاريخ/15/. ونضيف قائلين: علينا أن نعامل ابن خلدون على أنه رائد علمه فالبدايات في كل شيء من أصعب المشكلات.

أما في موضوع الدولة: فأنا أرجح بكل تواضع، وردُّ الرأي لي شخصياً لا يعني تعالياً وإدّعاءً للمعرفة وإنما لكي لاأنسب هذا الكلام لغيري، أقول "يتراءى لي أن ابن خلدون قد اطلع أو تناهى إلى سمعه ما حوى كتاب الجمهورية لأفلاطون لما وجدت من بعض التماثل بين نظام الحكم الاستبدادي عند أفلاطون /إذ اعتبره أسوأ أنواع الحكم لأن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة/ وبين طور الاستبداد والاسراف والتبذير عند ابن خلدون. لكن علينا هنا أن نذكّر بمسألة هامة ونقول: حتى لو تأثر ابن خلدون بالفارابي أو بأفلاطون أو بأرسطو كما رأى البعض... ترى ألم يتأثر الفارابي بأفلوطين؟ ثم ألم يتأثر أفلوطين بأفلاطون بل ألم يتأثر أفلاطون بأستاذه سقراط وبـ (ليكو رجيوس)؟ وهكذا دواليك ضمن حلقة متصلة لا انقطاع بين آخرها وأولها.

إن التأثر: لا ينفي عن صاحبة ـ أبداً ـ ميزة الابداع... فلا شئ يخلق من عدم.

وتأثر دانتي في كوميدياه الإلهية برسالة الغفران للمعري ـ كما رأى أسين بلاسيوس ـ لا يُسْقِطُ عظمة هذا الشاعر العبقري.

كما تأثر المعري: في رسالة الغفران بقصة الإسراء والمعراج وبعض أفكار الفرس التي هضمها لا يقلل من عبقرية ما أبدعه فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة. ثم هل من المنطق أن نقيس المحاولات الفردية والشذرات العفوية بالعلم المُقَوْنن في إطار نظريات مسلّم بها لدى الجميع؟..

بل.. هل يمكننا القول: إن الأخوين (رايت) الأمريكيين اللذين اخترعا الطائرة قد أخذا علمهما عن عباس بن فرناس مثلاً؟ إن ابن خلدون كان بحق مكتشف ومؤسس علم الاجتماع اسماً ومنهجاً وتنظيراً من دون منازع. وإن كلمة "العمران البشري والإجتماع الإنساني" أكثر دقة وشمولية من تسمية "سوسيولوجي" التي أطلقها عالم الإجتماع (أوغوست كونت) 1797ـ1857/م. كما أنه أول من استخدم العلوم الاجتماعية والسياسية مجتمعة وسخرها لخدمة التاريخ محاولاً ربط السياسة بعجلة الاقتصاد فوضع بذلك حجر الأساس لموضوع الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع السياسي أيضاً. كما خط منهجاً للبحث العلمي. يقول (حامد عبد الله ربيع) في كتابه (فقه السياسة في فلسفة ابن خلدون الاجتماعية): (إن ابن خلدون بالطريقة التي تناول بها الظاهرة موضع الدراسة قد خلق طريقاً للبحث العلمي).. لقد بدأ الأوربيون بالاهتمام بدراسة ابن خلدون في منتصف القرن التاسع عشر/م/ درسوه... وهضموه... وتمثلوه... ثم... تخطوه متخذين من نواة أفكاره أحد المداميك التي بنوا عليها صرح حضارتهم. أما نحن العرب فقد تأخر اهتمامنا بابن خلدون جداً... جداً.

وما استطعنا تمثله ولا تخطّيه بل اكتفينا بدراسته فقط وعندما حاولنا هضمه هضم بعضنا حقه... ولم يكتف البعض بأن أبقاه في دائرة الاتباع نافياً عنه صفة الابداع... بل أخرجه حتى من فلك العروبة أصلاً ونسباً علماً أن العلاّمة (ناجي معروف) في كتابه (عروبة العلماء) قد صنّف ابن خلدون على أنه واحد من أهم المبدعين العرب.

خاتمة

انطلاقاً من حبي الذي لايقل شأناً عن العبادة لأمتي العربية... ودفاعاً عن قدري الذي أوجدني فيها وجعلني أنضوي تحت لوائها كفرد من أبنائها الذين يتمنّون لها المقام العليّ والشرف السنيّ الأسمى... كثيراً ما وقفت في محراب الدولة الخلدونية حائراً اسأل نفسي أسئلة أراها من الأهمية بمكان. واسمحوا لي أن أفكر بها بصوت عال... ترى... إلى أي جيل من أجيال الدولة الخلدونية وصلت أمتي؟ وفي أي طور من أطوارها تعيش وما الذي أوصلها إلى ما وصلت إليه؟ وما السبب؟ ولماذا؟ وكيف؟... وإلى متى يمتد سباتها والزمن لاينتظر أحداً؟ المشكلة.. أني كلما سألت نفسي هذه الأسئلة تجيبني بكلمة لا أدري.. وكلمة لا أدري (مصيبة) في عصر فيه (الغول أحادي القطبية) يتربص خلف الأبواب... فمن كان منكم لايدري فأنا وإياه في خانة واحدة ومن كان منكم يدري فَلْيَهْدِني إلى معالم الطريق قبل فوات الأوان. ولست أدري ما الذي ذكّرني بقول الشاعر:

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

لا أقول ذلك مستسلماً لليأس والقنوط بل لنخرج جميعاً من قمقم السبات متذكرين ما قاله (جاك رسلر) عندما استشهد بعمر الخيام قال: (إن الجواد العربي قفز قفزات رائعة وسريعة في تاريخ الحضارة فلا بد له من استراحة). وأملنا أن لا تطول هذه الاستراحة... قانعين بأنه من زوايا الألم يولد الإبداع... ومن رحم الظلمة ينبجس النور... من لجة اليأس يولد الرجاء الأمل.....

المصادر والمراجع

1. دراسات في مقدمة ابن خلدون. ساطع الحصري. ص/151ـ168/ مكتبة الخانجي القاهرة دار الكتاب العربي/ط/8/.1967.
2. ص/21ـ39/.
3. وذلك في خطبة ألقاها مدير المعارف العام في العراق على مجموعة من المدرسين.
4. دراسات في مقدمة ابن خلدون ساطع الحصري ص/522/.
5. هذه الجملة عنوان كتاب ل"نافذ سويد".
6. المصدر نفسه ص/104/.
7. دراسات في مقدمة ابن خلدون ساطع الحصري ص/39/.
8. مجلة عالم الفكر الكويتية مجلد/14/عـ2/1983/ص10/299.
9. ص14ـ15.
10. دراسات في مقدمة ابن خلدون ساطع الحصري ص/354/.
11. سنن ابن ماجه حققه فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي ج ـ/2 ص1302.
12 ـ12ـ13ـ14ـ15دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الاسلامية وأثار رجالها عبده الشمالي دار صادر بيروت ط/5 ص756ـ757ـ758.

obeikandl.com

المراجع

- ابن خلدون. فلسفته الاجتماعية. جوستون بوتول. وزارة الثقافة والارشاد القومي المؤسسة العامة المصرية.
- ابن خلدون وعلم الاجتماع الحديث. فؤاد نزار البعلي.. دارالمدى بيروت ط/2 مجلد/8 /1975/.
- السياسة والدين عند ابن خلدون. جورج لابيكا. دار الفارابي./1980/.

تعريف علم الاجتماع:

- علم يدرس قوانين عمل المجتمع وتطوره وعلاقاته الاجتماعية. المعجم الفلسفي المختصر ص/255/ موسكو دار التقدم/1986/ترجمة توفيق سلوم.
- هو علم دراسة الانسان والمجتمع دراسة علمية تعتمد على المنهج العلمي وما يقتضيه هذا المنهج من أسس وقواعد وأساليب في البحث. عالم المعرفة عـ/44 آب 1991/الكويت. عبد الباسط عبد المعطي.
- علم الجماعات أو المجتمعات الانسانية وهو في حد ذاته دراسة الإنسان في مظهره الاجتماعي وللجماعات من الناس الذين يسعون بشكل تعاوني /يزيدأو يقل/ إلى تحقيق مصالح رئيسية معينة أو بصفة أساسيةتلك المصالح المتعلقة بالمحافظة على الذات والتكاثر /الموسوعة العربية الميسرة ص/1224/ الدار القومية للطباعة /مصر/ تأليف مجموعة من الخبراء.